

## هل الحرب شر لا بد منه ؟

المحاضرة التي افتتح بها حضرة صاحب المال وزير الشؤون الاجتماعية  
موسم المحاضرات في قاعة يورت التذكارية.

لأني لمعتب بأن أقف على هذا المنبر الذي طالما انبعثت من فوقه كلمة الإصلاح  
والثقافة حرة قوية فتنبأها الأمة شاكرة معتبطة .

وإني لأرجو أن يكون هذا الموسم كالمواسم السابقة ناجحاً بالغ الأثر في حياتنا الاجتماعية.  
وبعد فإني أعجب لماذا خصني حضرة الأستاذ كلياند بالكلام عن الحرب وأنا أتأمل  
نفسى فأجدني لا أصلح للحرب بأية حال من الأحوال وبالتالي لا أصلح للكلام عنها وعن  
الحكم عليها !

ثم أتساءل عما إذا كان هذا الوقت الذي نسمع فيه قصص المدافع هو الوقت الملائم  
للتفكير ، فيما إذا كانت هذه الأصوات المزعجة ضرورية أم غير ضرورية ؟  
ولكنني أعود فأقول : إن الكلام عن الحرب شيء آخر غير الحرب وممارستها على  
كل حال !

## هل الحرب خير ؟ :

إن الكلام عن الحرب قديم كالحرب نفسها ، والحرب قديمة قدم الإنسان على ظهر  
هذه الأرض .

وعلى الرغم من أن الحرب هي الموت والحراب والآلام فقد اختلف المفكرون في أمرها ،  
اختلفوا في طبيعتها ، وفي إمكان الاستغناء عنها ، بل إن من بين كبار المفكرين من مجدها ونظر  
إليها كأنها عنوان الحيوية مهما حصدت من الأرواح الغضة الفتية .

يرى "برودون" أن الحرب ظاهرة فسيولوجية ، وأنها دافع من دوافع النفس يكون ثروتنا  
العنصرية والخلقية . إنه يقول إنها سنة من سنن الحياة ، لأن مظهر الحياة هو الحركة والقوة ،  
والمظهر الأول للحركة والقوة هو الكفاح والحرب ، فالإنسان يكافح في سبيل الحياة كل ما يقف  
في طريقه . فإن وقت في طريقه رجل آخر كالفه ووقعت الحرب بينهما .

ويرى "دولين" وغيره من المثاليين أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة فلا محل للقول بأنها تتنافى مع الأخلاق، ولذلك فهي تحدث بين الهمج كما تحدث بين المتعدنين .

أليس قانون بقاء الأصلح حقيقة لامية فيها ؟ أليست نظرية "تنارع البقاء" أمراً لا شك فيه ؟ فالحرب مظهرهما وأداتهما لإزاحة الضعيف من طريق القوى ، وفي هذه الصورة الأخيرة يتبين لنا أن الحرب ليست ظاهرة في الحياة الانسانية فقط ، وإنما هي ظاهرة الحياة كله ، وهي وسيلة الطبيعة الأولى لتنظيم الحياة ، حيوانية كانت أو نباتية . بل لقد ذهب بعض الفلاسفة قديما وحديثا إلى ذم السلام .

ويعلل "أنسيون" ذلك تعليلا غربيا فهو يقول إن السلام مصدره الثروة ، والثروة أداة اللذة والدعة ، وهي مفسدة أى مفسدة ، تخلق الأنانية ، وتدهور الخلق وتودي بالأمم .

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا" .

وقال تعالى "وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ"

إن الحرب أم الشدائد فهي خير واعظ ومرب للأفراد والأمم ، تفرس في النفس خير الفضائل الإنسانية ، تفرس الشجاعة والقوة . والصبر والحزم ، واحتقار الموت . وتعلم تضحية المال والحرية والحياة ، بل التضحية بما هو أئمن من الحياة ، تضحية الأسرة والأبـاء وتضحية المجد ولذة الهوى والشباب .

ولا يظن أن ذلك كله إنما يفعله الإنسان مرغما لأنه لا حيلة في غيره . بل إن هيجيل يفهم ذلك بأن الحرب ضرورية للتطور الخلقى فهي تقوى فضائل الإنسان التي يضعفها السلام . وهذه الفضائل لا تموت في خلق الحمارين فقط بل تتعداها إلى غيرهم بحكم التضامن الاجتماعي .

وذهب نيتشه إلى أبعد من ذلك فدعا قومه إلى الحرب وحبها إلى نفوسهم فتأدى بأن تكون دينهم .

"يجب أن تحبوا السلام ، لا للسلام نفسه ، بل لأنه وسيلة لحرب جديدة ، لا أنصح لكم بالهدى في عملكم بل أنصح لكم أولا بالكفاح ."

"لا أنصح لكم بالسلام وإنما أنصح لكم بالحرب لأنها وسيلة النصر ."

ومن الغريب أن "جوستاف لوبون" يقول ما يقرب من ذلك :

"لو أن هناك أمة سلمية بطبيعتها لمحيث من التاريخ على عجل لأن الحياة جهاد، والجهاد ناموس عام ."

قد ذهب العرب في الجاهلية إلى ما ذهب إليه نيتشه فكانوا يقولون لمن مات على الفراش "مات حتف أنفه" وقد سمعت بعض أعراب قبيلة المعازة إلى اليوم يندبون رجلا منهم مات مريضا ويأسفون لأنه لم يميت قتيلا .

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب وقف يخاطب الناس فقال :

"إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نوت حتفا، ولكن قنصا بأطراف الرماح وتحت ظلال السيوف ."

وبذلك يفخر السمويل بن عاديا فيقول :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا ظل منا حيث كان قتيلا

تسيل على حد الظباء نفوسنا وإيست على غير السيوف تسيل

ولا نزاع في أنه على جوانب شرفو الحرب تبت مزايا كثيرة ، فهي مهماز الإنسانية يدفعها إلى قلع مراحل جديدة واسعة في فيافي العلم والمعرفة ، فتقدم الطيران والاسلكي والجراحة والكيمياء ، وكافة الفنون الصناعية تنهض بالأمم وقت السلام .

كما أنها تدفع الأمم إلى وضع تشريعاتها على أساس اجتماعي يحقق تضامن الطبقات . ففوق أنها تجمع بين الجميع في صفوف واحدة يستهدفون للعش والجرع ، فإنها تدفع الحكومات إلى رفع الضرائب على القادرين مما يقرب الشقة الواسعة بين الأغنياء والفقراء ويحرم المساواة الاجتماعية .

وكثيرا ما يبقى أثر هذه التشريعات بعد الحرب ويعود بالخير على الطبقات الفقيرة ، كتدعيمات العمال ، وإعانة الفقراء ، وإعانة البطالة .



## هل الحرب شر ؟

أه بالرغم من كل ذلك فشروو الحرب تفوق كل تصور وكما وجد فلاسفة يمدحونها فقد وجد آخرون يذمونها وينددون بها كأكبر ذائل الحكومات والإنسانية .

د قها فونبيز ، ولا مارتين ، واقد كتب إميل دي جيراردان كتابا عن الحرب  
ه إنها بأن الحرب ليست إلا العرقة في أوضع معانيها ، وبأها إيست إلا القتل  
و وأن الحكومات بلالنها إنما تعرض على القتل والسرقة .

وقال : "إنها القتل والسرقه التي يصفق لها وتنصب لها أقواس النصر مكان المشائق  
ويكافأ من أجلها بالمال والياشين بدلا من العقوبة والزج في السجون ، أنها أعظم مظهر  
على جنون الجماعة لأنها تبيح ما يحرمه القانون والدين " .  
ويصف تولستوى المحاررين بأنهم ليسوا إلا قتلة منظمين .

والأديان مجمعة على تفضيل روح السلام والتسامح ، فن وصايا المسيح عليه السلام  
ما جاء في الإنجيل الخامس من إنجيل متى : " سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ،  
وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من اطعمك على خذك الأيمن فحول له الآخر أيضا " .  
ونجاء في القرآن الشريف في قصة هابيل وقايل : " لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ،  
مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، أَنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ " .  
وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " .  
ثم أثمر السلم على الحرب بمجرد إمكانها فقال : " وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا  
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " .

والإسلام على العموم لم يقرر إلا الحرب الدفاعية للذود عن الدين أو لحفظ النظام .  
ولا غرابة في ذلك فإن الحرب ترك وراءها اليتيم والترمل والتدمير ، وتشل الحركة  
العمرائية وتشر الفقر والجوع في المدن والقرى .  
وفوق ذلك فهي تترع أصح الأيدي العاملة ، وأنضج الروس المفكرة ، وتخلف  
وراءها ملايين من العجزة والمشوهين .  
في الحرب العظمى مات ٨ ملايين ، وجرح وشوه ١٧ مليونا ، وصرف فيها ألف  
مليار فرنك ونحرب في أوروبا ما قيمته ٥٠٧ مليارات فرنك .

### أسباب الحروب :

هناك أسباب لا يمكن عدّها تعمل على إثارة الحروب وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة  
فعلامة على أن بذور الحرب كامنة في الطبيعة البشرية بحكم الغرائز التي تدفع إلى حب  
الملك والسيطرة والتنازع على البقاء فهناك أسباب أخرى تنشأ الملابس والظروف .

هناك أسباب أدبية وتقليدية ، منها الأخذ بالنار الذي يتعدى الأفراد إلى المجموعات . وكثيرا ما نارت الحروب أيام الفبائل البدائية لهذا السبب ، وما قل من الشعر العربي في حروب الأخذ بالنار يكون جزءا عظيما من شعر الحماسة في الجاهلية وبعء الإسلام . ومنها اتفاد الحرب رياضة وفروسية ، كما كان الحال في العصور الوسطى ومعظم حروب العرب كانت مشبعة بهذه الروح ، وكانت مفتخرة من المفانح للفرد ولاتميلة .

وهناك أسباب تاريخية بقومية كسلخ جزء من الوطن بتعاره فريقان . وقد كانت الأزراس واللورين من الأسباب لأولى في الحروب بين فرنسا والمانيا ، كما كانت الحرب بين فامندا وروسيا لسبب كهذا في أصلها . أو كرهبة بعض الولايات في الاتحاد بينها وذلك كالحرب الأمريكية بين الشماليين والجنوبيين أو كالحرب بين روسيا وبعض الولايات الألمانية . وهناك عوامل فكرية ودينية : كالثورة الفرنسية ، وثورة الحر على القبطرية ، والحرب الإسبانية . ومثل الحروب الصليبية التي كانت صراعا بين العقائد والأفكار أو بين التعصب لهذه العقائد على وجه أصح .

وهناك أسباب اقتصادية واجتماعية : فكثيرا ما كان سوء توزيع المواد الأولية والمنافسة التجارية في ميادين التوزيع سببا من أسباب قيام الحروب ولا سيما في العصر الحديث ، كما أن سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الداخلية كالعمق والبطالة وتكاثف السكان كثيرا ما تدعو الى الاتجاه نحو الحرب للتخلص منها أو لتعديل الأوضاع القائمة التي تؤدي إلى الفقر والبطالة .

وهناك أسباب علمية وعمزانية : فالقدم العلمي والصناعي الذي ينشأ عنه انقلاب في الأوضاع الفكرية والاقتصادية ، كثيرا ما تنشأ عنه الحرب ، كذلك ، لنذكر أن التقدم الصناعي هو الذي جعل "الانتاج الكبير" يحل محل الانتاج الفردي ، فزادت كميات الانتاج عن الاستهلاك إلى ولم يعد بد من إيجاد الأسواق للتصرف وإيجاد المستعمرات لانتاج المواد الخام ومن هنا زادت حدة الصراع العالمي وتقاربت الفترات بين الحروب في العصر الحديث .

### وسائل منع الحرب :

وقد فطن المفكرون والسياسيون إلى هذه الأسباب ، ويبدو أنهم عازمون على محاولة منعها بقدر ما في الطاقة .

فبرتراند رسل الفيلسوف الانجليزي المعروف يرى أن نحاول بث روح السلام بالتربية على شرط أن نبرهن على أن فكرة السلام العام لاتعارض المصاحبة التسمية ولا تنقص من الروح الوطنية ، وبذلك نكون قد هيأنا النفوس للبعد عن الحرب وحب السلم لمدى طويل .

كما أن دستور الاطنطى الذى عقد بين الولايات المتحدة وإنجلترا ثم انضم إليه كثير من الدول قد اعترف بضرورة توزيع المواد الخامة توزيعاً عادلاً ، وبحق كل الأمم فى الحياة التى تريدها .

ومن قبل هذا بذلت عدة محاولات لاستبعاد الحرب كوسيلة لفض النزاعات التى تقوم بين الأمم وفى مقدمتها ميثاق بريان - كيلوج وقد نص فيه على امتنكار الحرب كوسيلة لفض النزاع وعلى ضرورة الاتجاه إلى الوسائل السلمية دون سواها .

وكذلك كانت شروط ولسن الأربعة عشر المشهورة وميثاق عصبة الأمم خطوتين فى سبيل تحكيم وسائل السلم واستبعاد الحروب ، ولكن وقعت أخطاء فى التطبيق يحاول السياسة الآن اجتنابها كما ورد فى تصريح الاطنطى .

ثم إن أفكار المصلحين والسياسيين توجه الآن إلى الحلولة دون الحرب واسطة الإصلاح الاجتماعى الذى يذهب بالأسباب الاقتصادية والاجتماعية الداخية للحروب ويجعلون ذلك قريباً للضمانات الحربية والسياسة الخارجية .

وفى ذلك يقول مستر هربرت موريسون وزير الداخية الإنجليزية :

”إن الهدف الذى نرى إليه هو نظام تعاونى دولى يدعمه بوايس ويطيران دوليان تعيش الدول فى رحابه ، مضحية عن طيب خاطر ببعض حقوق استقلالها لتضافر جميعها فى إخلاص على خلق حياة أرقى وأصلح .

”ينبغى أن نعيش فى ذلك النظام الذى يمنح فيه كل إنسان ليس فقط حرية القول والفعل بل حرية العمل .

”ينبغى أن ندير نحو ذلك المجتمع الذى برئ من ذلك الطاعون المزدوج: الغنى المتطرف والفقر المتطرف ، نريد مجتمعاً يقبل فيه عن طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوى معقول للثمة والراحة والطمأنينة والأمن والتهديب لكل إنسان“ .

وتلك بشائر عالم جديد إذا أدت إليه الحرب الحالية كان الثمن الباهظ الذى أدمته الإنسانية فى شرانه ثماناً مئة وولا !

على أن بعضهم يرى أن الحرب فكرة قديمة ستزول كما زالت فكرة الأشراف والإقطاعيات ويرى أن الأمراد فى العصور الحديثة سيتمثلون مصالحهم الشخصية على فكرة خيالية مثالية كفكرة مصلحة الدولة والمجموع وبذلك يمجدون عنها .

وعلى طرافة هذه الفكرة فإن الأدب العربي لم يخل من نظرية قريبة منها وهي أن المرء إذا استجاب لدعوة العقل رأى الحرب جنونا .

وقد غير بعضهم بالفرار من الموقعة فقال :

”لأن يقال فرأى أنجزه الله ، خير من أن يقال مات رحمه الله“ وقيل لأعرابي : ”الأتحيء معنا لقتال الأعداء ؟“ فأجاب : ”وكيف يكون لي أعداء وما أعرفهم ولا يعرفوني ؟“ وقيل لآخر : ” ألا تذهب إلى الحرب ؟“ فقال : ” والله إني لأبغض الموت على فراشي فكيف أسعى إليه ركضا ؟“ .

وحضر بعض الجبناء جريا فتميل له تقدم فأنشد يقول :

وقالوا تقدم قلت لست بفاعل	أخاف على فخارتي أن تحطبا
فلو كان لي رأسان أتلقت واحدا	ولكنه رأس إذا راح أعقما
ولو كنت مبتاعا من السوق مثله	فعلت ولم أحفل بأن أتقدما
أؤتم أطفالا وأرمل نسوة	فكيف على هذا ترون التقدما ؟

ويقول أبو نواس :

مالى وللبيض والأرماح أحملها الخوف خير وأبقى أيها الناس

كلمة ختامية :

نعود فنتساءل ”هل الحرب شر لا بد منه“ ؟

لقد استعرضنا عوامل الحرب وعوامل السلام ، ولكننا نسئنا أن نقرر أن الحرب كانت في كل وقت أبلغ دعاة السلام ! ذلك أن جهنم الحرب التي تنصب على البشرية في عنف وقسوة ، تضطر هذه البشرية إلى محاولة الإهتداء العاجل إلى نعيم السلام وفردوس الأمان .

الحرب إذن تحمل في كيانها جرثومة فنائها ، وإذا كان جوابنا في الماضي على سؤال الليلة ”نعم الحرب شر لا بد منه“ فزجوا أن يكون جوابنا في المستقبل ”كلا بل الحرب شر قد انتهىنا منه“ .

عبد الحميد عبد الحق